لبنان بين الإرهاب الثقافي وثقافة الإرهاب

الكولونيل شربل بركات

كان لبنان في القرنين الماضيين يعتبر منارة الشرق في المجال الثقافي وكانت ثقافة لبنان ترتكز بنوع خاص على الانفتاح على ثقافات العالم الحرة حيث تناقش كل الآراء وتعلم كل التيارات الفلسفية والفكرية وتتفاعل كل الطروحات الاجتماعية من أينما وردت لا فرق. فقد طرحت في ساحته أفكار وآراء الإمبراطوريات؛ التقليدية منها أو المرتكزة على الثورة الاجتماعية القالبة للموازين العتيقة، وبين نضال الفلاحين والملاكين والفكر الإسلامي المحافظ أو ذاك المتحرر والمنطلق لينادي بالعدالة والمساواة، وبين طرح الفاشية المتنظمة بعد الحرب العالمية الأولى وطرح الشيوعية المستند على ثورة البروليتاريا، كانت الأفكار كلها تجد لها في لبنان مسرحا ومركزا للتحاور والتفاعل ما جعل هذا البلد مختبرا للإنسانية على مستوى رفيع من الرقي الحضاري والانفتاح. وقد ساهم في نضج الأفكار المؤيدة والمناهضة على السواء لكل هذه التيارات. وكانت الجامعات والنوادي والصحافة وحتى مراكز الأحزاب نفسها تساهم ببعض هذا التفاعل الحضاري وتجعل من لبنان منبرا ومنارة ثقافية مشعة في كل الشرق. وقد خاف من هذا الإشعاع كل الأنظمة في الدول المحيطة وكانت هذه الحرية لهم عبئا لم يستطيعوا تحمله في أحيان كثيرة. ولما كان لبنان قويا بعلاقاته الدولية وتشابك المصالح العالمية لم يستطع الطغاة أن يفرضوا التغيير فيه فسارعوا إلى تقوية تيارات تدافع عنهم ما أغنى في بعض الأحيان الساحة وأنزل في أحيان أخرى مستوى النقاش إلى التعنف الذي لا يعرف هؤلاء سواه. ولكن النظام الذي كانت تحميه دولة القانون، والتركيبة اللبنانية القائمة على توازن مجتمعي متعدد في كل نواحيه، جعل الأمور تستقر في الغالب وتبقي على حرية التعبير ومجالات الحوار حيث أن الطغاة أنفسهم صاروا يشعرون بحاجتهم هم إلى هذا المناخ خاصة بعد سلسلة الانقلابات التي كانت هذه الدول مسرحا لها وما ينتج عن ذلك من هروب الطاقم المخلوع إلى لبنان مؤقتا لحين تدبر أمره وعملية لجوئه إلى غير بلد. هذه الحالة من المد والجذر في علاقة ثقافة لبنان بالمحيط المتغير بين حكام متقلبين من نفس الفئة، جعلت البلد، خاصة في منتصف القرن الماضي، نقطة استقطاب للدارسين والمحللين والباحثين في المجال السياسي الاجتماعي وميزت بشكل واضح ثقافته العالمية البعد والمنفتحة بشكلها العفوي على كل الثقافات والمتغيرات، حتى أن الشارع اللبناني كاد أن يصبح ميزان التطورات بردة فعله على الأحداث العالمية.

وبموازاة هذه الثقافة اللبنانية كانت تبنى عند الجيران أسس النظام المخابراتي الأمثل الذي عرف كيف يستغل نقاط ضعف من سبقه، فرتب البيت معتمدا على تعدد أجهزة المخبرات والرقابة وعلى الإرهاب الداخلي الذي أطال مدة حكمه لدرجة أنه استطاع أن ينتقل إلى خارج الحدود فيلهي الناس عنده بمشاكل "الأمة الكبرى" وشعاراتها الفارغة كمثل "محاربة العدو الصهيوني" و"دعم تطلعات الشعوب وحركات التحرر" و"تسليح الجماهير الكادحة"... وإلى ما هنالك من الأسطوانة نفسها.

هذا النظام كان يمكنه خداع شعبه أو جعله يقبل بالتمثيلية بقوة الإرهاب ولكنه لم يكن ليستطيع فرض نفسه في المنطقة وفرض منطقه على العالم لو بقي جاره لبنان يتمتع بنفس الانفتاح الثقافي ونفس الحرية المباحة التي تضع على المشرحة كل الأفكار والتصرفات ولا يفوتها أي غمزة أو لفتة. فكان على هذا النظام الجديد أن يعي

أكثر من غيره مشكلة الجار المزعج فقرر أن يربيه ويغير طريقة عيشه وتفكيره. وبدأ بسلب الأمن وخلق الرعب بواسطة المنظمات الفلسطينية ثم أدخل أزلامه تقتل وتنهب، تحرق وتقصف، وتغير خرائط الوطن وتدب الرعب في بنيه، وعندما قام أبناء البلد يحمون أنفسهم من مجرميه رماهم بأكثر ما هم يكرهون "الإنعزالية"، فخافوا من أن يصدق الناس هذه وركضوا يستجدون الحلول من الجيرة، وإذا به يعرض نفسه الحل ويدخل من الباب الواسع ليحاول فرض طريقته، ولما لم تمر بسهولة أعاد التخريب والرعب التي يبرع فيها أكثر من مرة حتى كانت الأخيرة التي أخذ بها مباركة قوى كبرى بالعالم ليقضي على البلد الحر وعلى نظامه. وهكذا سمح له بإعادة تخريب أسس النظام الذي يخافه، وهو النظام القائم على حرية الناس وتمثيلهم، والحامي لهذه المقدسات المتأصلة في عقول وقلوب وسيرة أبنائه. ولم يستطع بالرغم من سيطرته على كل شيء، وهو الذي لا يعرف غير الإرهاب وسيلة إقناع، ففرض حزب الله، وفرض المخيمات التي كان قاتلها في طرابلس، وسمح لجماعة بن لادن التي كان سحقها في حماه، كل ذلك لكي يبقي سيفه مسلطا على رقاب الأحرار. ولم يستطع خنق الحرية بعد. وإذا به وبعد خمس وعشرين سنة من الاحتلال، وبالرغم من قضائه على مقومات البلد، وشرائه الزعماء الدمى، وجعله كل الفئات تقاتل بعضها، وبالرغم من تشريعه الإرهاب، وجعله سيفا مسلطا على رقاب الناس وعقولهم، لم يزل لبنان قادرا على التفكير بحرية وها هو اليوم يحاول أن يخنق الفكر كي لا يبقى لتلك الحرية وجود.

في خلال سنوات الاحتلال تلك فرض على لبنان إرهاب ثقافي ولكنه لم يكن بعد قد تبنى ثقافة الإرهاب، أما اليوم وبعد أن أصبحت حكوماته تنادي بالإرهابيين زعماء وقادة، وترفع شأن المجرمين، وتطارد الأحرار، وبعد أن أصبح القضاء فيه لا يخجل أن يصدر أوامر ضد ضميره، وضد القوانين، وبعد أن جنس مئات الألوف ليغير العقلية والتركيبة التي أعطت للبلد غناه، يمكننا أن نقول أن لبنان الرسمي قد تحول إلى ثقافة الإرهاب وصار جيشه، الذي طالما كان فخره وحامي الحرية والقانون، رمزا للإذلال والتبعية، ومتصدري الكراسي فيه، رمزا للجبن والتخاذل، وكدنا بالفعل نقول: أن ثقافة لبنان اليوم هي ثقافة الإرهاب، يعيشها الناس ويعتادون عليها، وتنادي بها بعض الأبواق المسموح لها أن تعلو بينما تخنق كل الأفواه الأخرى، وأصبحنا نقرأ في صحفه التي كانت في أحلك الظروف صحفا حرة، ويوم شعرت بنقص في هذه الحرية هربت إلى فرنسا أو بريطانيا أو دول أخرى وعاودت الانطلاق كما كان آباؤها قد هربوا إلى مصر في أول القرن وأنشؤوا هناك الصحافة الحرة يوم تجبرت السلطنة وقاومت الأحرار. فهل سيقبل اللبنانيون بتبني ثقافة الإرهاب تلك المفروضة عليهم في زمن محاربة الإرهاب العالمي؟ أم أنهم لا يزالون يعيشون الإرهاب الثقافي ولن يتبنوه مطلقا وإن ما زرعوا عليه خلال قرون لا يمكن أن ينزع منهم ولو في عقود من الإرهاب المستمر؟

٢٠٠٢/١٠/٦